وليس شهوداً جمع شاهد. والشُّهود والشّهادة الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة. والشّهادة قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر[1]، إنَّ المطلوب من المؤمنين في شهادتهم بالقسط أن يتجاوزوا مرحلة الشهادة التي قد تكون بالبصر وقد تكون بالبصيرة إلى مرحلة الشهيد المشاهد للشيء بعيني رأسه[2]، وكما كان المؤمنون قوّامين لله تعالى كانوا شهداء بالعدل لله تعالى وحده لا شريك له.

وإذا كانت الآية الكريمة الثَّانية من السورة الكريمة قد نهت المؤمنين عن أن يبادلوا المشركين صدّاً عن المسجد الحرام مقابل صدّ المشركين لهم وذلك في القول: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾، والمعنى: ولا يحملنّكم شدَّة بغض قومٍ لأجل أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بصدّهم عن المسجد الحرام، فإنَّ هذه الآية الكريمة تتجاوز في النَّهي إلى مرحلةٍ أبعد. قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألاّ تعدلوا. اِعْدِلوا هو أقرب للتَّقوى﴾، ومن البيِّن أنَّه قد جاء في الجزئيَّة الكريمة السابقة القسط بمعنى العدل. وقد رشَّح القِسْط لمجيء العدل. وينهى السياق الذين آمنوا عن أن يحملنّهم شدّة بغض قومٍ على ألاّ يعدلوا معهم في كلّ الأقوال والأفعال والأحوال. وتؤكّد الآية الكريمة هذا المعنى بالأمر بالعدل بصريح اللّفظ مع تبيين الحكمة السامية من العدل مع الأعداء. إنَّ اعتياد العدل في السّرّاء والضّرّاء، في المنشط والمكره، مع الأولياء والأعداء ثمرةٌ يانعة للقيام بالحقّ دائماً وأبداً لأجل الله تعالى الأعلى وللشّهادة بالقسط دائماً وأبداً ابتغاء وجه الله تعالى

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «شهد» (٢٦٧، ٢٦٨).
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «شهد» (٢٦٩).

وحده لا شريك له وليس لأيّ عرضٍ أو غرضٍ من أعراض الدّنيا وأغراضها. وإنَّ العدل واعتياد القيام به أقرب للتّقوى وأدنى للإحسان. وهل التَّقوى سوى خشية الله تعالى تجاه أوامره جلّ وعلا ونواهيه. وهل الخشية سوى حبّ الله تعالى والخوف منه جلّ وعلا. وإنَّ القرب للتَّقوى بسبب إلف العدل واعتياد القسط رشّح للأمر الصَّريح بتقوى الله تعالى إثر الأمر الصَّريح بمطلق العدل. قال تعالى: ﴿واتَّقوا الله﴾.

ولمّا كانت الأمور التي تتحدَّث عنها الآية الكريمة ذات علاقة بما تجنّه القلوب وتخفيه الضَّمائر وتضمّه النّفوس كان التَّذييل ذا علاقة بخبرة اللَّطيف الخبير: ﴿إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾ إنَّ الخبرة تعني استواء العلم بالظَّاهر والباطن معاً. وإنَّ التَّذييل ينبّه إلى علم اللطيف الخبير، فعلى المؤمنين أن يتَّقوا الله تعالى ويصلحوا ذات بينهم ويصلحوا نيّاتهم وأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم وأن يكونوا على يقينٍ بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً وخُبْرا وأن يعملوا وفق هذا العلم.

وإثر هذه التَّعاليم السَّماوية في الآيات الكريمات ينقسم النَّاس فريقين، كافرين ومؤمنين، وإلى هذين الفريقين أشارت:

الآيتان رقم (٩، ١٠)

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠ ﴾.

إنَّ الإيمان متعلّقٌ بالقلب. وقد كان حظّ القلب موفوراً في الآية الكريمة السَّابقة. وإنَّ عمل الصالحات دليلٌ على صحَّة الإيمان وتمكُّن التَّقوى منه. وقد أمرت الآية الكريمة السابقة بالتَّقوى. وإنَّ المطلوب من

المؤمنين أن يجمعوا بين الإيمان والدليل عليه وهو العمل الصالح الموافق للشّرع. وإنَّ الله سبحانه وتعالى يعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنَّ لهم مغفرةً لذنوبهم وأجراً عظيماً يوم القيامة بدخول الجنَّة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي مقابل وعد الله تعالى المؤمنين بالجنَّة ونعيمها وعيدٌ للكافرين بالنَّار وعذابها الأليم. ويلفت النَّظر الانسجام الصَّوتي بين الآيتين الكريمتين. وهذا الانسجام الصوتيّ تعاون عليه المعنى والمبنى معاً. في الآية الكريمة الأولى جاء: ﴿الَّذين آمنوا﴾ وفي الآية الكريمة الأخرى جاء: ﴿الذين كفروا﴾، في الآية الكريمة الأولى وُصِف الذين آمنوا بأنَّهم: ﴿عملوا الصالحات﴾، وفي الآية الكريمة الأخرى وُصِف الذين كفروا بأنَّهم: ﴿كذّبوا بآياتنا﴾، في الآية الكريمة الأولى جاء القول: ﴿لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾، وفي الآية الكريمة الأخرى جاء القول: ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾، في الآية الكريمة الأولى جاءت جملة: «وعد» ولفظ الجلالة: «الله» بصريح اللَّفظ، على حين جاءت الإشارة إلى الذين كفروا وكذّبوا بآيات الله تعالى في الآية الكريمة الأخرى باسم الإشارة الدّالّ على البُعْد وعلى الطّرد من رحمة الله تعالى: ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾.

ولمّا كانت نعمة الأمن على المسلمين والتَّمكين لهم في الأرض من كبرى نعم الله تعالى، وكان حديث السّورة الكريمة يميل إلى التَّنبيه إلى هذه النّعم والتنويه بشأنها فقد كان في الآية الكريمة التَّالية حديثٌ عن بعض جوانب هذه النّعمة، فإلى:

الآية رقم (١١)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

على غرار عددٍ من الآيات الكريمات في هذه السورة الكريمة المدنيّة نصادف هذا النّداء الحبيب إلى كلّ نفسٍ تقيّةٍ نقيّةٍ مؤمنة: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾، والآية الكريمة تأمر الذين آمنوا بأن يذكروا وبألاّ ينسوا نعمة الله تعالى عليهم، من بين نعم الله تعالى التي لا تُحْصى عليهم، حينما همّ قوم، وصمَّم على العزم فريقٌ من الأعداء وما أكثرهم، أن يبسطوا إليكم أيديهم بالسّوء، ويمدّوها نحوكم بالبطش والصَّوْل، فكفّ جلّ وعلا أيديهم عنكم، وردّ كيدهم في نحرهم. ومن بين هؤلاء الأعداء الذين كفَّ الله سبحانه وتعالى أيديهم الممدودة بالسُّوء إلى المؤمنين بنو النضير من اليهود[1]، ذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنّها نزلت في شأن بني النّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرّحى لمّا جاءهم يستعينهم في دية العامريّين ووكلوا عمرو بن جحش بن كعب بذلك وأمروه إن جلس النّبيّ ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرّحى من فوقه فأطلع الله النّبيّ ﷺ على ما تمالئوا عليه. فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية[2].

ويرتبط بالتّذكّر التّفكّر في هذه النّعمة والشّكر لله تعالى عليها بفعل

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (٢٢٤)؛ وتفسير الطبري (٦/ ٩٤)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

الأوامر واجتناب النَّواهي حتى يتحقّق في المرء صفة التَّقوى التي جاء الأمر بها في الآية الكريمة وذلك في القول: ﴿واتقوا الله﴾ والمعروف أنَّ درجة التَّقوى تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان بأن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك. ولمَّا كان الإنسان لا حول له ولا قوَّة إلاَّ بالله تعالى العليّ العظيم جاء الأمر بالتّوكّل على الله تعالى في القول في ختام الآية الكريمة: ﴿وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾، وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾، والمعنى أن الذي يتوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له في كلّ شؤونه فإنَّ الله سبحانه وتعالى القادر على كلّ شيء الفعّال لما يريد حسبه وكافيه ومغنيه عمَّن سواه.

وإنَّ الأمر بتذكّر النّعمة فالقيام بشكرها يذكّرنا بما جاء من إشاراتٍ سابقة إلى هذه النّعم في قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرجٍ ولكن يريد ليطهّركم وليتمّ نعمته عليكم لعلّكم تشكرون﴾، وفي قوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتّقوا الله. إنَّ الله عليمٌ بذات الصّدور﴾.

وإنَّ القول في الآية الكريمة: ﴿إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم﴾، يذكّر بما سوف يجيء في الآية الكريمة الثَّامنة والعشرين من اعتداء قابيل على أخيه هابيل وتقدُّم الجارّ والمجرور: «إليّ» دليلاً على عدوان قابيل وتأخّرهما: «إليك» دليلاً على تقوى هابيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف الله ربّ العالمين﴾.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.

ويلاحظ مجيء جملتي يبسط وبسط في حال الاعتداء إضافة إلى اسم الفاعل باسط. إنَّ الذين همّوا بأن يبسطوا إلى المصطفى ﷺ وإلى المؤمنين أيديهم بالسّوء هم من جنس قابيل المعتدي على أخيه هابيل. وقد نصَّت الآية الكريمة التالية من سورة الممتحنة على أنَّ أعداء هذا الدّين يبسطون إلى المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ أيديهم وكذلك ألسنتهم بالسّوء. ويلاحظ كذلك مجيء الجارّ والمجرور متقدِّمَيْن دليلاً على الرَّغبة الجامحة في العدوان. قال تعالى[1]: ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسّوء وودّوا لو تكفرون﴾.

والمعروف أنَّ البسط: يقابله القبض على نحو ما بيَّنت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[2]: ﴿من ذا الذي يُقْرِض الله قَرْضاً حَسَناً فيضاعِفَه له أضعافاً كثيرةً والله يَقْبِض ويبسُط وإليه تُرْجَعون﴾، والملاحظ أنَّ الآية الكريمة يجيء فيها القول: ﴿إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم﴾، وليس: فقبض أيديهم عنكم. وحينما نتأمّل جملة كفّ والمعاني التي تدلّ عليها نتبيَّن الحكمة من مجيء هذه الجملة في الآية الكريمة. من المعروف أنَّ الكفّ من الإنسان هي تلك الجارحة التي بها يقبض ويبسط. وكما كان حظّ اليد موفوراً من العمل فأُسْنِد إليها العمل غالباً وإن كان العمل بسواها كان حظّ الكفّ موفوراً من الدَّفع، دفع الأذى في المقام الأوَّل. وتُعورِف الكفّ بالدَّفع على أيّ وجهٍ كان، بالكفّ كان أو غيرها، حتى قيل: رجلٌ مكفوفٌ لمن قُبِض بصره. ومن ألطف ما يمكن الإشارة إليه في حقّ هذه اللّغة العبقريّة الشّريفة ممّا له علاقة بالأصل اللّغويّ

(١) الآية ٢.
(٢) الآية ٢٤٥.

«كفّ» أنَّ صفة الكفّ بمنع دفع الأذى ومنعه شملت لفظة كافّة في مثل قوله تعالى من سورة التَّوبة[1]: ﴿وقاتلوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافّة﴾، قيل معناه جماعةً كما يقاتلونكم جماعة، وذلك أنَّ الجماعة يقال لهم الكافّة كما يقال لهم الوازِعة لقوّتهم باجتماعهم[2].

فإذا تحوّلنا إلى قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم﴾، تبيّنا أنّ جملة «كفّ» تتجاوز مراحل قبض السّوء عن المؤمنين وصرفه ودفعه إلى منع الأذى من منبعه بكفّ أيدي أعداء الدين وشلّها وقطع أكفّهم أصلاً. وحينما يزول السبب وهو الأكفّ يزول المسبَّب وهو الأذى.

ويلاحظ بشأن القول: ﴿فكفّ أيديهم عنكم﴾، أنّه يجمع بين الأكفّ والأيدي. أمّا الأكفّ فلأنَّ وسيلة الأذى من سلاحٍ وغير سلاحٍ إنَّما يُقْبض عليها بالأكفّ. وهذه الأكفّ قد قطعت أو شلّت. وأمَّا الأيدي فلأنَّ الأكفّ جزءٌ منها ولأنَّ الأكفّ لا تعمل إلاَّ موصولةً بباقي اليد. وهذه الأيدي قد لحقت بالأكفّ فشلّت مثلها أو قطعت.

ومن البيِّن أنَّ الأيدي جاءت بصريح اللّفظ، أمَّا الأكفّ فقد جاءت مستترةً وراء جملة كفّ وبهذا أفاد القول: ﴿فكفّ أيديهم﴾ ثلاثة معانٍ الكفّ بمعنى منع الأذى، وكفّ الأكفّ، وكفّ الأيدي، بمعنى شلّها وقطعها ومنع أذاها.

ولا ينقضي العجب من تأخّر الأيدي وتقدّم الجارّ والمجرور دليلاً

(١) الآية ٣٦.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «كف» (٤٣٣).

على العدوان في القول هنا: ﴿إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾، وفي القول[1]: ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني﴾، ومن تقدُّم الأيدي وتأخّر الجارّ والمجرور دليلاً على كفّ الأذى في القول هنا: ﴿فكفّ أيديهم عنكم﴾، ودليلاً على تقوى الله تعالى في القول[2]: ﴿ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك. إنّي أخاف الله ربّ العالمين﴾.

● ● ●

(١) سورة المائدة: الآية ٢٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٨.

- ٤ -

نقض أهل الكتاب الميثاق
وعليهم اتباع الرسول الخاتم
محمد صلى الله عليه وسلم

الآيات (١٢ - ١٩)

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ
وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى
وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ
ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا
نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ
تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ
وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن
يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم
بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ

﴿... مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

من الذين همّوا أن يبسطوا أيديهم بالسّوء إلى المؤمنين يهود بني النّضير الذين أرادوا أن يغدروا بالمصطفى ﷺ. والمعروف أنّ ربّ العزّة أخذ من النَّبيّين الموثق بأن يؤمنوا بالمصطفى ﷺ لو بُعِث وهم أحياء على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الحادية والثمانون من سورة آل عمران، وأخذ النَّبيون بدورهم الموثق من أممهم بأن يؤمنوا به عليه الصَّلاة والسَّلام حينما يبعث. ولم يكتف بنو إسرائيل بنقض الميثاق، بل تجاوزوا ذلك إلى العمل من أجل قتل المصطفى ﷺ ولكنَّ الله تعالى عصمه عليه الصَّلاة والسَّلام من الناس. وإذا كانت أولى آيات القسم تشير إلى الميثاق الذي أخذه الله تعالى من بني إسرائيل فإنَّ الآية الكريمة الثانية تقرّر نقض بني إسرائيل الميثاق، وكأنَّ لسان الحال يقول: إنَّ القوم قد نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى منهم فكيف لا ينقضون ما دون ذلك من ميثاق. وبشأن نظم الآيتين الكريمتين الأوليين تبيّن أنَّ الآية الكريمة الثانية تسير على غرار الآية الكريمة الأولى، ولكن من زاويتين مختلفتين. الآية الكريمة الأولى تنصّ على بنود الميثاق في حال الوفاء به والآية الكريمة الأخرى تنصّ على بنود نقض الميثاق. وقد بيّن السياق أن الميثاق قد أخذ من النَّصارى كما أخذ من بني إسرائيل وأنَّ الأخيرين نقضوه كما نقضه الأوّلون.

ولمّا كانت رسالة المصطفى ﷺ عالميّة وكان ربّ العزّة قد أرسله عليه الصَّلاة والسَّلام إلى النَّاس كافّة، ومنهم اليهود والنَّصارى فقد تحوّل السياق إلى نداء أهل الكتاب وإخبارهم برسالة محمد بن عبد الله ﷺ إليهم أسوةً بسواهم والتَّنويه بمعجزة هذا الرسول الكريم الكبرى، وهي القرآن

الكريم الذي يبيِّن لأهل الكتاب كثيراً ممَّا يخفون عن الخاصَّة فضلاً عن العامَّة من أسرار التوراة والإنجيل. ولمَّا كانت قضيَّة التَّوحيد أهم البنود التي نقضها اليهود والنَّصارى من الميثاق، وكان النَّصارى أشد افتراءً وخطراً لنشر عقيدة التثليث وهي شركٌ وكفرٌ فقد نصَّ السياق على كفر الذين قالوا إنَّ الله سبحانه وتعالى هو المسيح ابن مريم. وكان الردّ على هذه الفرية مزمجراً على غرار الفرية التي تكاد السماوات يتفطّرن منها ويتناثرن قطعاً وتنشق الأرض وتتحول أخاديد وتخرّ الجبال هدّاً وتعود قاعاً صفصفا وأرضاً منبسِطةً مستوِية. إنَّ الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه عليه السَّلام ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يملك من الله تعالى من شيءٍ كي يمنع ذلك أو يصرفه؟ لا أحد لأنَّ الكلّ مخلوقات الله تعالى وفي مقدّمتهم عيسى عليه السَّلام. ولمَّا كان خلق عيسى عليه السَّلام من غير أب أحد عجائب القدرة الإلّهية فقد جاء النّصّ في الآية الكريمة على خلق الله تعالى ما يشاء وعلى قدرته المطلقة جلّ وعلا. وممّا له علاقةٌ بغلوّ اليهود والنَّصارى ادّعاؤهم أنَّهم أبناء الله تعالى وأحبَّاؤه بمعنى أنَّهم منه جل وعلا كالأبناء في القرب وهو جلّ وعلا كأبيهم في الشّفقة بهم والحبّ لهم. ولمَّا كان اليهود يزعمون أنَّهم لن تمسّهم النَّار إلاَّ أياماً معدودات يخرجون منها بعد ذلك وهي أيّام بعدد الأيام التي عبدوا فيها العجل فإنَّ السياق في أسلوب الاستفهام ينكر عليهم هذا الزَّعم لأنَّ الحبيب لا يعذّب حبيبه فكيف بالأب! ويبيِّن السياق لهم أنَّهم بشرٌ ممَّن خلق جلّ وعلا يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء وإلى الله تعالى المصير. ويعود السياق أخيراً إلى محمد بن عبد الله ﷺ البشير والنَّذير الذي جاءهم والذي عليهم أن يتَّبعوه عليه الصَّلاة والسَّلام.

الآية رقم (١٢)

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾.

جاء في الآية الكريمة السابعة خطاباً للذين آمنوا قوله عزّ من قائل: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتّقوا الله. إنَّ الله عليمٌ بذات الصّدور﴾، وإنَّ هذه الآية الكريمة الأولى في القسم تتحدَّث عن أخذ الله تعالى الميثاق من بني إسرائيل على حين تتحدَّث الآية الكريمة التّالية عن نقضهم الميثاق. فالحديث عن الميثاق من الروابط بين أطراف حديث الآيات الكريمات، هذا إلى أنّ من بين الذين همّوا أن يبسطوا أيديهم إلى المصطفى ﷺ والمؤمنين بالسّوء فكفّ عزّ وجل أيديهم يهود بني النّضير. وهذا رباطٌ آخر بين الآيات الكريمات.

وبالإضافة إلى حديث الآية الكريمة عن الميثاق هي تتحدث عن النقباء الاثني عشر الذين اختارهم موسى عليه السّلام بعدد الأسباط الاثني عشر، فقد اختار عليه السّلام من كلّ سبط أو قبيلة واحداً من النقباء يمثّلها وينطق باسمها ويتكفّل برعاية مصالحها وتعريفها بواجباتها وحقوقها ومتابعة

أعمالها ومعرفة مدى التزامها بما يجب عليها ويكون همزة الوصل بين رسول الله تعالى موسى عليه السَّلام وبين قومه. إذ النَّقيب بمعنى الكفيل الأمين الضَّامن على القوم[١]، والباحث عنهم وعن أحوالهم وجمعه نقباء[٢]، والنَّقيب وكذلك النِّقاب هو العالم بالأمور المنقّب عنها المستنبط لها[٣].

وبشأن هؤلاء النقباء الاثني عشر بمعنى العرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسَّمع والطَّاعة لله ولرسوله ولكتابه ذكر ابن عبَّاس، عن ابن إسحاق وغير واحد أنَّ هذا كان لمّا توجّه موسى عليه السَّلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كلّ سبطٍ نقيب[٤]، فأخذ عليه السَّلام من كلّ سبطٍ خيرهم وأوفاهم رجلاً. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾، فسار بهم موسى إلى الأرض المقدّسة بأمر الله حتى إذا نزل التِّيه بين مصر والشام وهي بلادٌ ليس فيها شجرٌ ولا ظلٌّ دعا موسى ربَّه حين آذاهم الحر فظلَّل عليهم بالغمام ودعا لهم بالرزق فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلوى. وأمر الله موسى فقال: أرسل رجالاً يتجسَّسون إلى أرض كنعان التي وهبت لبني إسرائيل من كلّ سبطٍ رجلاً فأرسل موسى الرؤوس كلّهم الذين فيهم[٥]، والمعروف أن قوم موسى عليه السَّلام جبنوا عن

---

(١) انظر تفسير الطبري (٦/ ٩٥)؛ وتفسير القرطبي (٢١٠٩)؛ وتفسير ابن عطية (٤/ ٣٨٢).

(٢) مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «نقب» (٥٠٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة «نقب» (٥/ ٤٦٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٩٦)؛ والمراد أن هؤلاء النُّقَباء أرسلوا لهذه المهمَّة. انظر تفسير ابن عطية (٤/ ٣٨٣).

دخول الأرض المقدسة بنص القرآن الكريم على نحو ما بيّنت الآيتان الكريمتان الثانية والعشرون والرابعة والعشرون من هذه السورة الكريمة[1].

والمعروف أن المصطفى ﷺ لمّا بايع الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثةٌ من الأوس وتسعةٌ من الخزرج[2]، والمقصود أنَّ هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النّبيّ ﷺ لهم بذلك. وهم الذين ولُوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنّبيّ ﷺ على السّمع والطّاعة[3].

تبيِّن الآية الكريمة في أسلوبها المشتمل في القول: «ولقد» على اللّام الموطّئة للقسم وقد التي تفيد التحقيق أن الله سبحانه وتعالى قد أخذ ميثاق بني إسرائيل والعهد المؤكّد بيمين[4]، بأن يوحّدوه عزّ وجلّ ويفردوه تعالى بالعبادة. وبعد أن اتّجه موسى عليه السّلام وقومه إلى الأرض المقدّسة التي كتبها الله تعالى لبني إسرائيل وأصبحوا قريباً من المدينة أمر موسى عليه السّلام الاثني عشر نقيباً الذين كانوا معه عليه السّلام أن يتقدموا إلى المدينة وأن يقفوا على أحوالها وأن يعودوا بالمعلومات الدّقيقة عنها إلى موسى عليه السّلام وقومه[5]، والمعروف أنَّ بني إسرائيل جبنوا عن دخول المدينة المقدّسة وقد كتب الله تعالى عليهم التّيه في مكانٍ معيّن من شبه جزيرة سَيْناء أربعين سنة، ولم يدخل بنو إسرائيل تلك الأرض المقدّسة التي اختلف العلماء في تعيينها إلاّ بعد انقضاء فترة التّيه وذهاب الجيل الذي

(١) انظر مثلاً تفسير الطبري (٦/ ٩٧).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢)؛ وانظر تفسير ابن عطية (٤/ ٣٨٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «وثق» (٥١٢).
(٥) انظر تفسير ابن عطيّة (٤/ ٣٨٣).

سامه فرعون الخسف وحطَّم معنوياته وبعد مجيء الجيل الجديد الذي ملأ رئتيه من نسيم الحرية البليل وهوائها العليل.

والآية الكريمة التي نصَّت على الميثاق، والمعروف أنَّ توحيد الله تعالى أهمّ بنوده، نصَّت على أهمّ بنود الميثاق بعد قضيَّة التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة. إنَّ الآية الكريمة تقرر أنَّ الله سبحانه وتعالى سيكون مع بني إسرائيل بالنُّصرة والتأييد، الإرشاد والتَّسديد. ما داموا مستمسكين بالميثاق منفّذين لكامل بنوده. وفي أسلوب القَسَم ينصّ السياق على مفردات الميثاق وعلى ثواب الوفاء به. ويقدّم السياق الصلاة في الذكر باعتبارها عماد الدين وبسبب نهيها عن الفحشاء والمنكر. ويجمع السياق بين الصلاة والزكاة على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الصَّلاة والزَّكاة دليلاً على أهميَّة الصلاة التي يتَّجه بها العبد مباشرةً إلى بارئه جلَّ وعلا وعلى أهميَّة الزكاة التي يتجه بها العبد إلى خالقه ورازقه مروراً بأخيه الإنسان. وفي القول بعد ذلك: «وآمنتم برسلي» يشترط الإيمان بكلّ رسل الله تعالى وفيهم موسى عليه السَّلام رسول الله تعالى إلى بني إسرائيل، كما يشترط نصرة بني إسرائيل لهؤلاء الرُّسل وفيهم موسى عليه السَّلام. قال تعالى: ﴿وآمنتم برسلي وعزَّرتموهم﴾ ومعنى عزَّرتموهم نصرتموهم[(١)]، وإنَّما يكون نصر بني إسرائيل رسل الله تعالى السابقين على موسى عليه السَّلام بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي، على حين يكون نصر بني إسرائيل موسى عليه السَّلام باتّباعه عليه الصَّلاة والسَّلام والجهاد في صفّه عليه الصَّلاة والسَّلام وبذل النَّفس والنَّفيس ابتغاء وجه الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٩٧)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣)؛ وتفسير ابن عطيَّة (٤/ ٣٨٥).

وحينما ننظر إلى القول: ﴿لئن أقمتم الصَّلاة وآتيتم الزَّكاة وآمنتم برسلي وعزَّرتموهم﴾، نستطيع أن نفهم أنَّ الصلاة المقدّمة في الذكر على الزَّكاة من جنس الإيمان بالرسل المقدم في الذّكر على نُصْرَتهم، وأنَّ إيتاء الزكاة وهي شيءٌ محسوس من جنس النُّصرة التي تكون بالمال والبدن وهما محسوسان.

ولمّا كانت صور الخير لا حصر لها وكان ما يفعله المرء من خير يريد به وجه ربّه الأعلى وبخاصَّةٍ المال الذي ينفق في سبيل الله تعالى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ كان ثمَّة نصٌّ على الإقراض في الآية الكريمة، ووصفته بأنَّه حسن من جهتي البداية والنهاية. أمَّا البداية فتتعلَّق بمصدر هذا المال الذي ينفق إن كان مالاً وما أشبهه، إنه يجب أن يكون طيِّباً فالله سبحانه وتعالى طيّب ولا يقبل إلاَّ طيِّباً. وأمَّا النهاية فتتعلَّق بالهدف من تلك الأقوال والأفعال، ومنها الإنفاق في سبيل الله تعالى الأوسع مجالاً من الزَّكاة. إنَّ كلّ ذلك يجب أن يراد به وجه الله تعالى وليس الرياء ولا السمعة ولا حسن الأحدوثة.

وإذا كانت بنود الميثاق على النحو الذي تبيّنّا فإنَّ الثَّواب يجيء واقعاً في جواب القسم وذلك في القول: ﴿لأكفرنَّ عنكم سيِّئاتكم ولأدخلنّكم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾، أما وقد تفضَّل الله تعالى بستر السيِّئات ومحو الذّنوب وتفضّل بقبول الحسنات، فإنَّ حُسْن الثواب يتمثَّل في دخول جنَّات الخلود التي تجري من تحت شجرها الأنهار والتي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وإذا كان قد جاء في الآية الكريمة الخامسة تحذير للمؤمنين من الكفر والرّدّة والعياذ بالله وذلك في القول: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله

وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، فإنَّ المعنى ذاته يقال في الخطاب الموجَّه لبني إسرائيل والذي تختم به الآية الكريمة: ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾، وسواء السَّبيل وسط الطريق[1]، وحينما يضلّ المرء سواء السَّبيل ويخطىء وسط الطريق فمن باب الأولى والأحرى أن يخطىء جانبي الطَّريق لأنَّ جانبي الطريق في المعنويات وفي المحسوسات أقرب للفساد من وسط الطريق، وحينما ينال الفساد وسط الطَّريق ينال جانبيه بطريق الأَحْرى والأَوْلى.

وبعد حديث السياق عن أخذ الميثاق وثواب الوفاء به وعذاب نقضه يتحدَّث عن نقض الميثاق وعذاب نقضه وذلك في الآية الكريمة التَّالية، فإلى:

الآية رقم (١٣)

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

يصحّ أن نتبيَّن رباطاً في البناء المعنوي بين هذه الآية الكريمة والآية الكريمة السابقة عليها. وهذا يقتضينا أن نضيف إلى ما قلنا عن الآية الكريمة السَّابقة بأنَّ العناصر الخمسة التي نصَّت عليها الآية الكريمة في القول: ﴿لئن أقمتم الصَّلاة وآتيتم الزَّكاة وآمنتم برسلي وعزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾، منها ما هو حقٌّ لله تعالى وهو إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة وإقراض الله تعالى قرضاً حسناً، ومنها ما هو حقٌّ لرسل الله تعالى وهو

(١) تفسير الطبري (٦/ ٩٨)؛ وتفسير ابن عطية (٤/ ٣٨٥).

الإيمان برسل الله تعالى ونُصْرتهم. وبعد تبيين هذه الإضافة التي يقتضيها تبيين بناء المغاني في الآيتين الكريمتين نود أن نسير مع البناء في الآيتين الكريمتين خطوة خطوة. أشارت الآية الكريمة السابقة إلى أخذ الميثاق من بني إسرائيل وبعث النُّقباء. قال تعالى: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾. وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى نقض بني إسرائيل الميثاق ولعن الله تعالى لهم. قال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم﴾، وقد أشارت الآية الكريمة السابقة إلى حقّ الله تعالى بشأن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة. قال تعالى: ﴿لئن أقمتم الصَّلاة وآتيتم الزكاة﴾، والمعروف أن الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. قال تعالى[1]: ﴿أُتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصَّلاة، إنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾، وممَّا له علاقةٌ بنهي الصَّلاة عن الفحشاء والمنكر رقَّة القلوب وخشوعها. وإنَّ الزكاة التي قُرِنت في القرآن الكريم بالصَّلاة فيما يزيد على الثَّمانين موضعاً مؤدّيةٌ إلى الغاية الشريفة ذاتها لأنَّ الصَّلاة وهي حقّ لله تعالى يتَّجه بها العبد إلى بارئه جلّ وعلا بطريقٍ مباشر، ولأنَّ الزَّكاة وهي حقّ الله تعالى أيضاً يتَّجه بها العبد إلى بارئه جلّ وعلا مروراً بأخيه الإنسان. وما الذي يقابل إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة في الآية الكريمة الأخرى؟ قسوة القلوب بسبب التَّقصير في جنب الله تعالى وفي حقّ عباد الله تعالى بشأن الصَّلاة والزَّكاة. وفي مقابل رقَّة القلوب وخشوعها ثمرةً لإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة يجيء في الآية الكريمة الأخرى النّصّ على زيادة الله تعالى تلك القلوب القاسية قسوة. قال تعالى: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾.

وفي مقابل حقّ الصَّلاة وحقّ الزَّكاة للذات العليَّة هنالك حقّ الإيمان

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

وحقّ النُّصرة لرسل الله تعالى، وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿وآمنتم برسلي وعزّرتموهم﴾، وما الذي يقابل الإيمان بالرّسل ويضادّه؟ الكفر بهم. وما الذي يقابل نصرة الرسل ويضادّها؟ خِذلانهم. وكيف عبَّرت الآية الكريمة التّالية عن عدم إيمان بني إسرائيل بالرّسل صلوات الله تعالى عليهم وخذلانهم؟ عبَّرت عن ذلك بتحريف بني إسرائيل كلام الله تعالى في التَّوراة التي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام عن مواضعه. قال تعالى: ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾، إنَّ بني إسرائيل كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وكانت الثّمرة النّكدة لهذا وذاك تحريف كلام الله تعالى عن مواضعه في الصّور المختلفة التي تتحول من السَّيِّىء إلى الأسوأ من تأويلٍ فاسد، وتحميلٍ للنّصّ غير ما يحتمل، وإخفاءٍ لبعض الآيات، وطمسٍ لبعض المعاني، وتغييرٍ وتبديلٍ وحذفٍ وإضافة وما إلى ذلك من تحريفٍ للدّرجة التي أعلن فيها حَبرٌ من أحبارهم هداه الله تعالى إلى الإسلام وهو الإمام المهتدي السَّمَوْءَل بن يحيى المغربيّ المتوفَّى سنة ٥٧٠هـ في كتابه القيّم: إفحام اليهود[١]، قائلاً: «فهذه التوراة التي بأيديهم ــ على الحقيقة ــ كتاب عِزْرا وليس كتاب الله»، وقد كان عزرا اليهودي خادماً لملك الفرس وكان حظيّاً عنده فتوصَّل إلى بناء بيت المقدس وكتب لليهود التوراة التي بأيديهم لذا فقد كان يُسَمَّى بالكاتب أو النَّاسخ. يقول الإمام المهتدي السَّموءل بن يحيى المغربي[٢]: «وهؤلاء الأئمَّة الهارونيّون الذين كانوا

---

(١) إفحام اليهود (١٤٠) تقديم وتحقيق وتعليق د. محمّد عبد الله الشرقاوي طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد ١٤٠٧هـ الرياض. المملكة العربيّة السعودية.

(٢) انظر إفحام اليهود (١٣٨).

يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها قتلهم بُخْت نصّر على دمٍ واحدٍ يوم فتح بيت المقدس.

ولم يكن حفظ التوراة فرضاً ولا سنَّة، بل كان كلّ واحدٍ من الهارونيّين يحفظ فصلاً من التَّوراة.

فلمَّا رأى عِزْرا أنَّ القوم قد أُحْرق هيكلهم وزالت دولتهم وتفرّق جمعهم ورُفع كتابهم جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفّق منه هذه التوراة التي بأيديهم الآن».

وهكذا يتبيَّن أن تحريف الكلم عن مواضعه واسع المدلول إلى أبعد الدَّرجات.

وما الذي يقابل القول في الآية الكريمة السابقة: ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾؟ وقد عرفنا أنه يتحدَّث في حقٍّ للذَّات العليّة. الذي يقابله هو القول في الآية الكريمة: ﴿ونسوا حظّاً مما ذكِّروا به﴾، والمعنى: وتركوا نصيباً[1] ممَّا ذكِّروا به وَوُعِظُوا أي وتركوا العمل به رغبةً عنه. وقال الحسن: تركوا عُرَى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلاَّ بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالةٍ رديئةٍ فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمة[2]، وهو كقوله: نسوا الله فنسيهم، أي تركوا أمر الله فتركهم الله[3].

وإذا كان جزاء الحسنة في الآية الكريمة السابقة القول: ﴿لأُكَفِّرَنَّ

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٠٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ١٠٠).

عنكم سيّئاتكم ولأدخلنّكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾، لأنَّ الحسنة تهدي إلى الحسنة فما هو جزاء السَّيِّئة في هذه الآية الكريمة التّالية؟ بما أنَّ السيئة تجرّ إلى السيئة فإنَّ الذي يقابل جزاء الحسنة هنالك القول هنا: ﴿ولا تزال تطَّلع على خائنةٍ منهم إلاَّ قليلاً منهم﴾، والمعنى: ولا تزال أيّها الرسول الكريم والنبيّ العظيم تطلع من بني إسرائيل على فرقةٍ خائنة(١)، وتظهر على خيانة(٢)، وتقف على مكرٍ منهم وغدرٍ لك ولأصحابك(٣).

ومن البيِّن أن الآية الكريمة تتحدث عن بعض صفات بني إسرائيل السيِّئة خلال تاريخهم الطويل، وأنَّ بعض الصفات السيئة يعود إلى ماضيهم السحيق كنقضهم الميثاق فقد عبدوا العجل مثلاً على عهد رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السَّلام، وأنَّ بعض تلك الصفات شركةٌ بين مختلف العصور كتحريف الكلم عن مواضعه في التوراة فقد كان التحريف خلال العصور دأبهم حتى إنهم حرفوا نعت المصطفى ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة(٤)، وأنَّ بعض هذه الصِّفات كالخيانة التي عرفوا بها خلال العصور قد اصطلى ﷺ بنارها فإنَّ بني إسرائيل من الجماعات التي همَّت بأن تبسط يدها بالسّوء إلى المصطفى ﷺ على نحو ما أومأت آخر آيات القسم السابق. وهكذا يتبيَّن أنَّ بين الآيات الكريمات الكثير من الرّوابط الظاهرة والخفيّة القريبة والبعيدة.

وإذا كانت الآية الكريمة السابقة قد خُتِمَتْ بتهديد القوم في حال

---

(١) انظر تفسير ابن عطية (٣٨٨/٤).
(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٠٠)؛ والجلالين.
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣).
(٤) انظر هنا تفسير ابن عطية (٣٩١/٤).

الكفر وذلك في القول: ﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السَّبيل﴾، فإنَّ هذه الآية الكريمة قد قابلت تحريف بني إسرائيل ما في التوراة من نعت محمد ﷺ مثلاً، وقابلت خيانتهم بالعفو والصَّفح والإحسان، وذلك في القول: ﴿فاعف عنهم واصفح إن الله يحبّ المحسنين﴾، والمعروف أن بني إسرائيل لم يزدادوا بالعفو والصَّفح والإحسان إلاَّ مكراً وبغياً وعدواناً، وقال قتادة: هذه الآية، فاعف عنهم واصفح، منسوخة بقوله[1]: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾، الآية[2].

ويلفت النظر في هذا القسم الأخير من الآية الكريمة أنَّ العفو والصَّفح متعلّقان بالمصطفى ﷺ، أمَّا الإحسان فإنه متعلّق بالذات العلية. إن رب العزَّة يأمر المصطفى ﷺ بالعفو عن بني إسرائيل، بمعنى ترك المؤاخذة على ما ارتكبوا في حقّه عليه الصَّلاة والسَّلام من سيِّئات لعلَّ الله سبحانه وتعالى أن يهديهم إلى سواء السبيل[3]، بل بالصَّفح عنهم، وذلك بالإقبال عليهم بصفحة الوجه بمعنى عُرْضه وجانبه[4]، دليلاً على تجاوز مرحلة العفو بمعنى ترك المؤاخذة على الذَّنب إلى مرحلة ترك اللوم والتَّثريب وستر

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣)؛ وتفسير الطَّبري (٦/ ١٠١)؛ وتفسير ابن عطية (٤/ ٣٨٩).

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة: «عفو» (٤/ ٥٦ و ٥٨)؛ ومفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «عفا» (٣٤٠).

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة: «صفح» (٣/ ٢٩٣)؛ ومفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «صفح» (٢٨٢).

الذَّنب وسؤال الله تعالى الهداية والمغفرة لهم. وقد جاء عن يوسف عليه السَّلام الذي أصبح عزيز مصر أو ملكها في عفوه عن إخوته قوله تعالى[1]: ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾، وإنَّ الآية الكريمة يجيء فيها أخيراً القول: ﴿إنَّ الله يحبّ المحسنين﴾، ويكون بذلك حثّ لمن عفا أن يتجاوز العفو إلى الصَّفح، ولمن صَفَحَ أن يُحْسن. وإنَّ هذا التَّدرج إلى الأحسن والأفضل والأكمل يذكرنا بصفات المتَّقين في هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران[2]: ﴿الذين ينفقون في السرَّاء والضرَّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النَّاس. والله يحب المحسنين﴾.

وإنَّ القول في آية سورة آل عمران: ﴿والله يحب المحسنين﴾، والقول في آية سورة المائدة: ﴿إنَّ الله يحب المحسنين﴾، يلفت الانتباه إلى الحثّ على الإحسان وإلى أن الله سبحانه وتعالى يحبّ المحسنين. فهل في الإمكان أن نتبيَّن الحكمة من القول في آية سورة المائدة: ﴿إنَّ الله يحب المحسنين﴾، والقول في آية سورة آل عمران: ﴿والله يحب المحسنين﴾؟ وفي سبيل الجواب على هذا السؤال نحن نطرح مجموعةً من الأسئلة تتبيَّن منها بإذن الله تعالى الحكمة من جعل الإحسان محبوباً من الذات العلية ومتعلقاً بها. من المعروف أنه لا أحد يحبّ الإحسان بأكثر من المصطفى ﷺ فهل يستحقّ بنو إسرائيل النَّاقضون للعهود النَّاكثون للمواثيق عفو المصطفى ﷺ فضلاً عن صفحه أو إحسانه؟ لا.. وفيما يتصل بعباد الله تعالى هل يستطيع كلّ واحدٍ منهم أن يكظم غيظه ويعفو عمَّن أذنب في

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.
(٢) الآية ١٣٤.

حقّه، ويحسن إلى من أساء إليه؟ لا. قال تعالى[1]: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السَّيِّئة. ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم. وما يلقاها إلاَّ الذين صبروا وما يلقاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم﴾. وهكذا يتبيَّن أن بني إسرائيل لا يستحقّون العفو والصَّفح فكيف بالإحسان، وأنَّ الذين يطيقون دفع الأذى والسيئة بالطريقة التي هي أحسن وبالحسنة هم الصابرون وأصحاب الحظّ العظيم. فكم يحتاج المحسنون إلى من أساء إليهم من صبرٍ ومن حظٍّ عظيم!! إنَّ في القرآن الكريم حثّاً على كظم الغيظ والعفو والصَّفح. وإنَّ في القرآن الكريم تبييناً بأنَّ الله سبحانه وتعالى يحبّ المحسنين. فهنيئاً للمحسنين إلى من أساء إليهم بسبب حظّهم العظيم من الصبر ومن الإيمان، من الأجر الكبير والثَّواب العظيم. إنَّ الذين يستحقون الإحسان على الإساءة ليسوا بالكثيرين، وإنَّ الذين يحسنون إلى من أساء إليهم ليسوا بالكثيرين أيضاً. وتنبيهاً على هذه القلَّة وعلى رفيع منزلة المحسنين إلى من أساءوا إليهم يجيء هنا القول: ﴿إن الله يحبّ المحسنين﴾، وفي آية سورة آل عمران: ﴿والله يحب المحسنين﴾ والله أعلم.

وكما أخذ الله تعالى الميثاق من بني إسرائيل أتباع موسى عليه السَّلام فنقضوه فعاقبهم، أخذ جلّ وعلا الميثاق من النَّصارى أتباع عيسى عليه السَّلام فنقضوه فعاقبهم وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التَّالية، فإلى:

---

(١) سورة فصلت: الآيتان ٣٤، ٣٥.

الآية رقم (١٤)

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

النَّصارى هم أتباع عيسى عليه السَّلام الذي آتاه الله تعالى الإنجيل. قيل: سُمُّوا بذلك لقريةٍ تسمَّى ناصرة كان ينزلها عيسى عليه السَّلام فنسب إليها فقيل: عيسى النَّاصري. فلمَّا نسب أصحابه إليه قيل: النَّصارى. قاله ابن عبَّاس وقتادة[١]، ويلاحظ أنَّ الآية يجيء فيها القول: ﴿ومِنَ الذين قالوا إنَّا نصارى﴾، وكأنَّ ثمَّة تعريضاً بهؤلاء الأتباع لعيسى عليه السَّلام الذين قالوا إنَّهم نصارى، وإنَّهم أتباع عيسى عليه السَّلام دون أن يكون منهم اتّباعٌ حقيقيّ لتعاليم عيسى عليه السَّلام كما جاءت في الإنجيل الذي أوحاه الله تعالى إليه. إنَّ هؤلاء الأتباع كأنَّهم اكتفوا بالانتساب لعيسى عليه السَّلام والانتماء لدينه عليه السَّلام دون أن يتجاوزوا مرحلة الاعتقاد والقول إلى العمل وهو المهمّ[٢]، وممَّا قصَّر في حقّه هؤلاء الذين قالوا ــ مفتخرين ــ إنَّهم نصارى العهد المؤكَّد الذي أخذه الله تعالى عليهم بإفراده جلّ وعلا بالعبادة وباتّباع تعاليم عيسى عليه السَّلام التي اشتمل عليها الإنجيل. ويلاحظ وجه الشَّبه الكبير بين تعبير الآية الكريمة هنا عن النَّصارى: ﴿فنسوا حظّاً ممَّا ذكِّروا به﴾، وبين تعبير الآية الكريمة السابقة عن اليهود: ﴿ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به﴾، إنَّ كلاًّ من اليهود والنَّصارى قد قصَّروا في جنب الله تعالى، وإنَّ كلاًّ منهما قد عاقبه الله تعالى. وإنَّ الثمرة النكدة لتنكب

(١) تفسير القرطبي (٣٦٩).

(٢) وانظر مثلاً تفسير ابن عطية (٤/ ٣٩٠).

النَّصارى الطريق المستقيم أن أغرى الله سبحانه وتعالى بين طوائفهم العداوة والبغضاء وحرّش بينهم[1]، وكأنَّ العداوة والبغضاء لملازمتهما طوائف النَّصارى قد ألصقتا بطوائفهم بالغِراء وهو تلك المادَّة التي يُلْصَق بها[2]، فلا يزال يلعن بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة ويكفّر بعضهم بعضاً. والعداوة منافاة الالتئام بين القلوب[3]، والبغضاء والبُغْض نِفار النّفس عن الشيء الذي ترغب عنه. وهو ضدّ الحبّ فإنَّ الحبّ انجذاب النفس إلى الشّيء الذي ترغب فيه[4].

وهكذا يتبيَّن أن البغضاء تتجاوز العداوة. فإذا كانت العداوة تتَّسم بعدم التئام القلوب، فإنَّ البغضاء تتجاوز مرحلة عدم الالتئام إلى النّفور. وقديماً قيل:

إنَّ القلـــوب إذا تنـــافـــر وُدُّهـــا   مثـل الـزّجـاجـة كسـرهـا لا يجبـر

وحينما نعلم أنَّ الصنع هو إجادة الفعل، فكل صنعٍ فعلٌ، وليس كل فعل صنعاً[5]، نستطيع أن نفهم من الجزئيَّة الأخيرة في الآية الكريمة: ﴿وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون﴾، أنَّ طوائف النَّصارى جادَّةٌ في باطلها حريصةٌ عليه سعيدةٌ به ويصحّ في حقّها قولُه تعالى[6]: ﴿كلّ حزبٍ

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٠٢).

(٢) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «غرا» (٣٦٠).

(٣) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «عدا» (٣٢٦).

(٤) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «بغض» (٥٥).

(٥) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ «صنع» (٢٨٦).

(٦) سورة الروم: الآية ٣٢.

بما لديهم فرحون﴾، وقولُه تعالى[1]: ﴿قُلْ هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا﴾، ويلاحظ أنَّ الجزئيّة الكريمة يجيء فيها: «سوف» للدّلالة على المستقبل البعيد، والمراد بذلك يوم القيامة، كما يجيء فيها جملة: «ينبّئهم» والنّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنّ. ولا يقال للخبر في الأصل نبأٌ حتّى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة[2].

إنَّ طوائف أهل الكتاب التي نقضت الميثاق من اليهود والنّصارى والتي أساءت صنعاً وهي تظنّ أنها أحسنت صنعاً سوف ينبّئها الله تعالى يوم القيامة بما كانوا يصنعون في هذه الحياة الأولى. وهكذا يتبيّن أنَّ الجزئية الأخيرة في الآية الكريمة تشمل اليهود كما تشمل النّصارى بسبب اشتراك الفريقين في نقض الميثاق والعمل بعكس مقتضاه وهم يحْسبون أنّهم يحسنون صنعا.

أما وقد ضلَّ اليهود والنّصارى عن سواء السبيل فكيف تكون العودة إلى الطريق القويم والصراط المستقيم؟ عن طريق اتّباع الرّسول النّبيّ الأمّيّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل وعن طريق اتّباع القرآن الكريم النور المبين والصراط المستقيم. وإلى هذه الحقائق أشارت:

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ١٠٣، ١٠٤.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «نبأ» (٤٨١).

الآيتان رقم (١٥، ١٦)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾﴾.

من المعروف أنَّ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ وحدها هي الرسالة العالميَّة، فقد بعث الله تعالى المصطفى ﷺ إلى النَّاس كافَّة وفيهم أهل الكتاب، اليهود والنَّصارى. ولمّا كان كلٌّ من اليهود والنصارى قد ضلّ عن سواء السبيل فإنَّ أولى الآيتين الكريمتين تنادي أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى بأنهم قد جاءهم فعلاً ووصلهم رسول الله تعالى إليهم محمد بن عبد الله ﷺ. والمعروف أنَّ جملة جاء إنما تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب. وهي هنا تستعمل في موضعين اثنين في الآية الكريمة دليلاً على المجيء والوصول الفعليّين في حقّ كل من الرسول الكريم النور المبين، والقرآن العظيم الصراط المستقيم.

وبشأن المصطفى ﷺ يشار إليه مرَّةً بأنَّه الرسول وأخرى بأنه النور. وحينما يشار إليه ﷺ بأنَّه الرسول يقترن بلفظ الرسول نون العظمة العائدة إلى الذَّات العلية: ﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾، وتنصّ الآية الكريمة على إحدى معجزات هذا الرسول الكريم التي ينبغي على أهل الكتاب أن يقدروها حقّ قدرها ويستفيدوا منها ويتّخذوا منها الدَّليل على صدق المصطفى ﷺ الذي أوحى الله تعالى إليه بالقرآن الكريم. قال تعالى:

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾.

إنَّ كلاًّ من اليهود والنَّصارى قد أخفوا عن الخاصَّة فضلاً عن العامة الكثير من الفوائد والأسرار في كلٍّ من التوراة والإنجيل، امتداداً لتحريفهم الكلم عن مواضعه، وتمادياً في كتمانهم العلم الذي أمرهم الله تعالى بتبيينه وأخذ عليهم الميثاق بعدم كتمانه. وممّا أخفاه أهل الكتاب نعت المصطفى ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. إنَّ المصطفى ﷺ قد بيّن لأهل الكتاب بواسطة القرآن الكريم المصدّق للكتب السماوية السابقة المهيمن عليها الحافظ لها الشاهد بصحّتها، كثيراً مما كان كلٌّ من علماء اليهود والنَّصارى يخفونه من تعاليم الكتابين السماويّين، وفي الوقت ذاته عفا المصطفى ﷺ عن كثيرٍ من تلك التَّعاليم التي أخفاها أهل الكتابين لأنَّها لا فائدةَ من تبيينها، وتركها عليه الصَّلاة والسَّلام وسكت عنها لأنَّها لا مصلحة من إخراجها ولا منفعة من إعلانها. قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً ممّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾.

والجزء الآخر من الآية الكريمة: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين﴾، يشير إلى المصطفى ﷺ بأنّه النّور. ومن طبيعة النور أنه يبدّد الظّلمات ولا يأتي منه سوى الخير. وإنَّ نور المصطفى ﷺ قد بدَّد الله تعالى به ظلمات الشرك والضّلال والحيرة والشكوك والرّيب والجهل وقضى جلّ وعلا به على كلّ ظلام، ومن ذلك ما فعله أهل الكتاب الّذين أخفوا الكثير من تعاليم الكتابين السّماويّين اللّذين أوحاهما الله تعالى لموسى وعيسى عليهما الصَّلاة والسَّلام. وقد جاء في حقّ التَّوراة قوله

تعالى[1]: ﴿إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدىً ونور﴾، وجاء في حقّ الإنجيل قوله تعالى[2]: ﴿وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التّوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور﴾.

وإنَّ وسيلة المصطفى ﷺ النور المبين لتبديد الظلمات هي الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد. قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين﴾، ويلاحظ أنَّ لفظ الجلالة «الله» هو الذي يجيء ههُنا وليس لفظ الرّبّ. والمعروف أنَّ لفظ الجلالة إنما يستعمل حينما يراد العموم وأنَّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل حينما يراد الخصوص. وقد أريد العموم هنا لأنَّ رسالة المصطفى ﷺ عالميّةٌ منذ فجرها، ولأنَّ محمداً ﷺ قد أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين. وإنَّ عالميّة رسالة المصطفى ﷺ خاتم النبيِّن وأشرف المرسلين اقترن بها معجزة الكتاب المبين الذي ينفرد بين سائر معجزات النَّبيِّين بأنه جمع بين المعجزة والمنهج معاً، وقد عُبّر عنه في الآية الكريمة بأنَّه: ﴿كتابٌ مبين﴾، وإنَّ الآية الكريمة التّالية تبيِّن بعض نعوت هذا الكتاب المبين.

إنَّ هذا الكتاب المبين المعجز يهدي به الله تعالى من اتّبع رضوانه وابتغى رضاه جلّ وعلا[3]، سبل السّلام وطرق النّجاة والسّلامة ومناهج الاستقامة[4]، ويخرجهم من الظّلمات بأنواعها إلى النّور بإذنه جلّ وعلا

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٣) تفسير الطبري (٦/ ١٠٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).

وحسن توفيقه[1]، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم وطريقٍ قويم يفضي بهم إلى النَّعيم المقيم في جنّات النَّعيم.

ولمّا كان توحيد الله تعالى أهمّ بنود الميثاق وكان نقض أهل الكتاب لهذا البند كبيراً، ولمّا كان النَّصارى يتقدّمون اليهود في هذا النّقض فقد تحدَّثت الآية الكريمة التّالية عن النَّصارى الذين زعموا أنَّ عيسى عليه السَّلام ابن الله، فإلى:

الآية رقم (١٧)

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

من المعروف أن الكفر في اللغة ستر الشيء وأن أعظم الكفر جحود الوحدانيّة أو الشّريعة أوالنّبوّة[2]، وبشأن الإشراك مع الله تعالى غيره جاء قول الحقّ جلّ وعلا[3]: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يُشْرِك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾، وقوله عزّ من قائل[4]: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يُشْرِك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾، وبشأن الذين قالوا إنَّا نصارى جاء النّصّ على

---

(١) انظر تفسير الطبري (٦/ ١٠٤).

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «كفر» (٤٣٣).

(٣) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٦.

كفرهم بسبب إشراكهم مع الله تعالى غيره وقولهم: ﴿إنَّ الله هو المسيح ابن مريم﴾، في ثلاث آياتٍ كريمات في هذه السورة الكريمة. جاء هنا القول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيح ابن مريم﴾، وكذلك في الآية الكريمة الثانية والسَّبعين. بينما جاء في الآية الكريمة الثالثة والسبعين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة﴾، وقد نصَّت سورة التَّوبة على أنَّ مشركي اليهود والنَّصارى بقولهم على التَّوالي إنَّ عزيراً ابن الله والمسيح ابن الله إنما يشابهون في هذا القول قول الذين كفروا من قبل، من آبائهم المشركين الذين زعموا ذلك الزَّعم، ومن غير اليهود والنَّصارى كمشركي العرب الذين زعموا أنَّ الملائكة بنات الله، كما نصَّت السورة الكريمة على أنَّ الذين ضلّلوا القوم الذين عطَّلوا عقولهم عن العمل هم الأحبار علماء اليهود، والرّهبان عبَّاد النَّصارى، الذين عبدوهم بأن أطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله تعالى وتحريم ما أحلّ الله تعالى. قال تعالى[1]: ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون. اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلاَّ ليعبدوا إلّهاً واحداً لا إلّه إلاَّ هو سبحانه عمّا يشركون﴾.

والذي يلفت النظر في الجزئيَّة الكريمة الأولى من الآية الكريمة أنَّ لفظ الجلالة: «الله» هو الذي يتقدَّم بينما يتأخّر لفظ المسيح ومن ثمّ يجيء القول: «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم»، ولا يجيء القول: إنَّ المسيح هو الله. والحقيقة أن هذا القول الذي يجيء على لسان مشركي النَّصارى والذي يتقدَّم فيه لفظ الجلالة: «الله» في موضعه يظلّ يدلّ

(١) سورة التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١.

على أنَّ التوحيد هو الأصل وأنَّ إفراد الله تعالى بالعبادة هو الفطرة التي فطر تعالى الناس عليها وأن هؤلاء المشركين من النصارى قد انحرفت فطرتهم عن سواء السبيل ومع ذلك فلا زالت فيها البقيَّة التي تنبّه إلى الفطرة في أصلها وإلى أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وإنَّ الدليل من الواقع على ما نقول من ميل الفطرة الطبيعي إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وحنينها الفطريّ إلى التوحيد أن كثيراً من هؤلاء النصارى قد هداهم الله تعالى إلى دين الإسلام، وأنَّ هؤلاء الذين أسلموا جميعاً قد صرَّحوا بأنَّ التثليث في المسيحية مخالفٌ لنداء الفطرة وبأنَّهم لم يكونوا وقتاً من الأوقات مطمئنّين لما يقال لهم من أنَّ الثلاثة واحد لاصطدام هذا الزَّعم مع الفطرة ومع العقل.

وإنَّ هذا القول الذي يجري على ألسنة مشركي النصارى، والذي فهمنا منه أن القوم يخالفون فطرهم ويضادّون نداء أعماقهم حينما يقولون: «إن الله هو المسيح ابن مريم» ذو علاقةٍ بهذه الآية الكريمة من سورة الرّوم التي تتحدث عن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها بإفراده جلّ وعلا بالعبادة. قال تعالى[1]: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً. فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله. ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.

والجزئية الكريمة تشير إلى عيسى عليه السَّلام بصفته: «المسيح» وسمّي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنَّه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما[2]، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) أخمص القدم: ما لا يصيب الأرض من باطنها.

العاهات برىء بإذن الله تعالى[1]، وفي النّصّ على أن المسيح عليه السّلام هو ابن مريم تنبيهٌ على المنفذ الذي تسرّب منه الغالون في عيسى عليه السّلام باعتباره ابن مريم وليس له أب. والمعروف أنَّ عيسى عليه السّلام يمثّل مظهراً من مظاهر القدرة المطلقة للذّات العلية في مجال خلق الإنسان. إنَّ آدم عليه السّلام خلقه الله تعالى من طين. فلا أب ولا أمّ له عليه السّلام. وإنَّ حوّاء عليها السّلام خلقها الله تعالى من آدم عليه السّلام، من ضِلَعٍ من أضلاعه، من شقّه الأيسر، كما روي عن ابن عبّاس[2]، فكأن حوّاء عليها السّلام خلقت من ذكرٍ ولا أنثى. وإنَّ كلّ أبناء آدم وحوّاء عليهما السّلام خلقهم الله تعالى من ذكرٍ وأنثى. وإنَّ عيسى عليه السّلام خلقه الله تعالى من أنثى ولا ذكر. وهكذا يتبيَّن أنَّ خلق عيسى عليه السّلام يمثّل صورةً من الصور الأربع لخلق الله تعالى للإنسان، كما يتبيَّن من المقارنة أنَّ خلق آدم عليه السّلام من غير أبوين أعجب من خلق عيسى عليه السّلام من أمٍّ ولا أب. وكما كان آدم عليه السّلام عبداً لله تعالى كان عيسى عليه السّلام عبداً لله تعالى من باب الأَوْلى والأَحْرى.

وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك الغالين، والأمر وراء ذلك موجّهٌ إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة: ﴿فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً﴾، والجواب: لا أحد يملك من الله تعالى أيّ شيءٍ إن أراد جلّ وعلا أن يهلك المسيح ابن مريم ويتوفّاه لأنه عبدٌ لله تعالى، وأن يهلك أمّه مريم البتول لأنّها أمةٌ لله تعالى وقد توفّاها الله تعالى وأن يهلك من في الأرض جميعاً

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٥٠).

وقد قال تعالى[1]: ﴿كلّ نفسٍ ذائقة الموت﴾، وقال تعالى[2]: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيّدة﴾.

ويلاحظ النصّ في الآية الكريمة للمرّة الثانية على أنَّ المسيح عليه السَّلام هو ابن مريم. والمعروف أن أكثر المواطن في القرآن الكريم التي جاء فيها ذكره عليه السَّلام جاء فيها النّص على أنّه عليه السَّلام ابن مريم. كلّ ذلك بقصد حمل الغالين فيه عليه السَّلام على العودة إلى جادّة الصّواب. كما يلاحظ التّدرّج من عيسى عليه السَّلام، إلى أمّه عليه السَّلام التي يرتبط بها عليه السَّلام وحدها، إلى من في الأرض جميعاً. وأوّل الّذين في الأرض الناس، ويأتي وراء الناس كل ذي روحٍ في هذه الأرض. إنَّ الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يهلك كلّ الخلائق لفعل: ﴿لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون﴾[3].

وإذا كان الإهلاك مفيداً للملكيّة وللقدرة فإن السياق وراء ذلك ينصّ على ذلك. إنَّ النَّص على الملكيّة جاء في القول: ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾، ولا يخرج شيءٌ في هذا الملكوت عن السَّماوات والأرضين وما بينهما. ولمّا كان الملك بسبب الخلق وكان خلق عيسى عليه السَّلام من عجائب الخلق والوجود، جاء النَّصّ على عملية الخلق دون سواها من القول: ﴿يخلق ما يشاء﴾ وإنَّ النّصّ على القدرة جاء في ختام الآية الكريمة: ﴿والله على كلّ شيءٍ قدير﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٥، وسورة الأنبياء: الآية ٣٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٧٨.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

ولمَّا كان اليهود شركاء النَّصارى في الغلوّ فقد أشارت الآية الكريمة التالية إلى مظهرٍ من مظاهر غلوّ اليهود والنَّصارى، فإلى:

الآية رقم (١٨)

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

إنَّ كلاً من اليهود والنَّصارى يقولون إنَّهم أبناء الله تعالى، أي كأبنائه في القرب والمنزلة، وإنَّه سبحانه وتعالى كأبيهم في الرّحمة والشّفقة[١]، وإنَّهم أحبّاؤه جلّ وعلا، والأحبّاء جمع حبيب[٢]، وهم يريدون من هذا الادّعاء الزّعم بأنَّ لهم عند الله تعالى منزلةً خاصَّةً بهم ومقصورةً عليهم. وقد أكذب الله سبحانه وتعالى اليهود والنَّصارى في زعمهم، وها هي ذي الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم في هيئة الاستفهام الإنكاريّ: إن كنتم أيّها اليهود والنصارى تزعمون أنكم أبناء الله تعالى وأحبّاؤه فلم يعذّبكم الله تعالى بذنوبكم، فإنَّ كلاً منكم على علم بأنَّه معذَّبٌ بذنبه مؤاخذٌ بإساءته بدليل أنَّ اليهود يزعمون أنَّهم سيدخلون النَّار وسيعذّبهم الله تعالى فيها أربعين يوماً عدد الأيّام التي عبدوا العجل فيها على عهد موسى عليه السَّلام ثم سيخرجهم منها على حدّ قولهم. كيف يمكن التَّوفيق بين زعمهم بأنَّهم أبناء الله تعالى وأحبَّاؤه وبين زعمهم بأنَّ مدَّة عذاب الله تعالى لهم في النار أربعون يوماً والمعروف أن الأب لا يعذّب ابنه والحبيب لا يعذّب حبيبه[٣].

---

(١) انظر الجلالين، وتفسير ابن عطيّة (٤/ ٣٩٤).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٠٦).

(٣) انظر تفسير الطبري (٦/ ١٠٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٤)

ولمَّا كان الكلام الذي يقوله اليهود والنَّصارى لا أساس له من الصحَّة، فقد كان في الآية الكريمة سكوتٌ عنه وإضراب: «بل أنتم بشرٌ ممن خلق»، فليس اليهود والنَّصارى سوى بشّرٍ ممن خلق الله تعالى، سيثابون إن أحسنوا، وسيعاقبون إن أساءوا، وانظر إلى فضل الله تعالى العظيم، ورحمته جلّ وعلا التي وسعت كلّ شيء في القول: ﴿يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾، إنَّ كلاًّ من اليهود والنَّصارى مخطئون في أقوالهم. ولمَّا كان الرّجاء في فضل الله تعالى هو منطلق اليهود والنَّصارى في أقوالهم الخاطئة فإنَّ الحقيقة التي بيَّنتها الآية الكريمة بأنَّ الأمر كلّه لله تعالى وليس لأمانيّ اليهود والنَّصارى قد أردفت بتبيين الجزاء على الأعمال التي يقوم بها الإنسان مع تقديم مغفرة الله تعالى لمن يشاء وتأخير عذاب الله تعالى لمن يشاء. إنَّ تقديم المغفرة وتأخير العذاب مظهرٌ من مظاهر فضل الله تعالى ورحمته التي وسعت كلّ شيء والتي وسعت اليهود والنَّصارى وها هي ذي المغفرة التي طمعوا فيها دون استحقاق يتجاوب معها السياق الذي يقدّم المغفرة على العذاب.

ولمَّا كان جوّ الملك المطلق هو المسيطر على الآية الكريمة وعلى الآية الكريمة السابقة، فقد جاء هنا ذات القول الذي جاء في الآية الكريمة السابقة: ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾، ولمَّا كانت الآية الكريمة السابقة قد أشارت إلى عجيبة خلق الله تعالى عيسى عليه السَّلام من غير أب مظهراً من مظاهر القدرة المطلقة للذَّات العليَّة فقد ختمت الآية الكريمة بالقول: ﴿والله على كل شيء قدير﴾، ولمَّا كانت هذه الآية الكريمة قد ركَّزت على الثَّواب والعقاب، وهما إنَّما يكونان أساساً يوم القيامة فقد ختمت هذه الآية الكريمة بالقول: ﴿وإليه المصير﴾.

ولمّا كان محمد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيين وأشرف المرسلين وقد أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين وفيهم اليهود والنّصارى، ولمّا كانت معجزة المصطفى ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم الذي نصّت الآية الكريمة الخامسة عشرة من السورة الكريمة، الرابعة من هذا القسم، على أنّه قد بيَّن لأهل الكتاب كثيراً من الأسرار التي كانوا يخفونها عن الخاصّة فضلاً عن العامة فإنّ آخر آيات هذا القسم التي يشبه صدرها صدر الآية الكريمة الرابعة تبيّن رسالة المصطفى ﷺ إلى النّاس كافّة وتبيّن أنّ هذا الرسول الكريم يبيِّن لأهل الكتاب ما لم يعلموا بسبب انقطاع الرّسل وعن طريق ما أوحى الله تعالى إليه من كتابٍ كريم وسنةٍ نبويّة مطهَّرة، فإلى:

الآية رقم (١٩)

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾.

إنّ الآية الكريمة التي يشبه صدرها صدر الآية الكريمة الرَّابعة في القسم تنادي أهل الكتاب وتخبرهم بأنّ محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله تعالى إليهم قد جاءهم فعلاً ووصلهم وها هو ذا عليه الصَّلاة والسَّلام يبيِّن لهم على فترةٍ من الرسل وانقطاعٍ منهم[1] ما لم يعلموا فإنّ بين عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام وبين محمَّد بن عبد الله ﷺ خمسمائة وتسعاً وستين سنة[2]، لئلاّ[3] تقولوا أيّها اليهود والنّصارى ما جاءنا من بشير يبشّرنا بالجنة إن نحن

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٠٧)، يقول ابن عطية في تفسيره (٥/ ٤٩٥): «والفترة: سكونٌ بعد حركةٍ في جرم، ويستعار ذلك في المعاني».
(٢) الجلالين، وانظر تفسير ابن عطيّة (٤/ ٣٩٦).
(٣) الجلالين.

أطعنا الله تعالى وأطعنا رسوله ﷺ، ولا نذير ينذرنا بالنار إن نحن عصينا الله تعالى وعصينا رسوله ﷺ. لقد جاءكم يا أهل الكتاب حقّاً، ووصلكم فعلاً، بشيرٌ ونذير هو محمد بن عبد الله ﷺ.

ولمَّا كان الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الذي يرسل المرسلين ويبعث بالنَّبيّين ختمت الآية الكريمة بما ختمت به الآية الكريمة قبل السابقة: ﴿والله على كلّ شيءٍ قدير﴾.

والحقيقة أنَّه إذا كان بين هذه الآية الكريمة والآية الكريمة قبل السابقة توافق في الجزئية الأخيرة التي تنصّ على القدرة المطلقة للذات العليّة، فإنَّ بين هذه الآية الكريمة التي يتقدم فيها البشير على النَّذير وبين الآية الكريمة السابقة التي تتقدم فيها المغفرة على العذاب انسجاماً معنويّاً. إنَّ من متعلِّقات البشارة المغفرة وقد جاءتا متقدّمتين. وإنَّ من متعلِّقات النِّذارة العذاب وقد جاءا متأخّرين.

وإذا كان بين عجز الآية الكريمة وعجز الآية الكريمة قبل السابقة تشابه، فإنَّ بين صدر الآية الكريمة وصدر الآية الكريمة الرابعة في القسم تشابهاً. قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم﴾.

وهكذا يتبيَّن أنَّ التشابه والانسجام المعنويّ من مظاهر الترابط بين الآيات الكريمات.

● ● ●

- ٥ -

القدس محرّمة على بني إسرائيل

الآيات (٢٠ - ٢٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

بقصد تسلية المصطفى ﷺ الذي همَّ بنو إسرائيل بقتله عليه الصَّلاة والسَّلام لولا أنَّ عصمه الله تعالى من النَّاس، وبقصد تثبيت فؤاده عليه الصَّلاة والسَّلام تجاه تعنُّت بني إسرائيل معه وإيذائه عليه الصَّلاة والسَّلام يتحوَّل السياق كي يتحدث عن تعنّت بني إسرائيل مع رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السَّلام وجراءتهم عليه بل على الله تعالى. يأمر السياق المصطفى ﷺ أن يذكر إذ قال موسى عليه السَّلام لقومه منادياً لهم أكثر من مرَّة في ألطف نداء: «يا قوم» آمراً لهم أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم إذ جعل فيهم أنبياء موصولين من لدن إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله تعالى وسلامه الى موسى عليه السَّلام كبير أنبياء

بني إسرائيل، وإذ جعلهم ملوكاً حاكمين مخدومين ذوي خدمٍ وحشمٍ وثراءٍ وجاهٍ وملكٍ، وإذا آتاهم الله تعالى ما لم يؤت أحداً من عالمي زمانهم ديناً ودنيا. ولمَّا كان بنو إسرائيل قد هاجروا على عهد يوسف عليه السَّلام عزيز مصر أو ملكها من الشام وفلسطين إلى مصر، وها هم أولاء قد عادوا مع موسى عليه السَّلام من مصر إلى الشام وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الأرض المباركة التي كتب الله سبحانه وتعالى لهم وفيها بيت المقدس الذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى مصر، فإنَّ موسى عليه السَّلام يأمرهم بأن يدخلوا تلك الأرض المقدّسة المباركة المطهَّرة التي كتبها الله تعالى لهم. ولمَّا كان موسى عليه السَّلام عالماً بضعف همَّة قومه عليه السَّلام وجبنهم وهم الذين سامهم فرعون وآله الخسف وألفوا حياة الذِّلّة والعبوديَّة فقد نهاهم عليه السَّلام عن أن يرتدّوا على أدبارهم ناكصين عن الجهاد، وأن ينقلبوا خاسرين ديناً ودنيا.

وبقصد أن يعلن قوم موسى عليه السَّلام عن قرارهم بأنَّهم لن يدخلوا المدينة المقدَّسة حتَّى يخرج منها الأعداء وهم سكانها يجيء على لسانهم القول: ﴿إنَّ فيها قوماً جبّارين﴾، ولمَّا كان في قوم موسى عليه السَّلام رجلان من الذين يخافون الله تعالى وقد أنعم الله تعالى عليهما بنعمه العظيمة، ولمَّا كان هذان الرجلان ينظران بنور الله تعالى إلى حقيقة أولئك الجبّارين الصّفر من الإيمان واليقين وليس إلى أجسامهم التي يخدع البسطاء منظرها ورُواؤها فقد أمرا قوم موسى عليه السَّلام بأن يدخلوا على الجبّارين باب المدينة وبشّراهم بأنَّ مجرَّد الدخول على الجبّارين معناه الانتصار عليهم شريطة الإيمان المطلق بالذَّات العليَّة ووعدها الذي لا يتخلَّف والتَّوكُّل على الله تعالى وحده لا شريك له. ولا يلتفت القوم إلى الرَّجلين

المنعم عليهما وإنّما يواصلون نداءهم السابق لموسى عليه السّلام في ذات الطريقة القاسية الفظّة: «يا موسى» مؤكّدين فحوى قولهم السابق بأنّهم لن يدخلوا المدينة أبداً ما دام الجبّارون فيها، مرتكبين الحمق الذي ليس وراءه حمق، والجراءة التي ليس وراءها جراءة في حقّ موسى عليه السّلام بل في حقّ الذّات العليّة وذلك في القول على لسانهم: ﴿فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾، ولمّا كان موسى عليه السّلام لا يملك سوى ذاته الشريفة وذات شقيقه هارون عليه السّلام فقد عبّر عليه السّلام عن هذه الحقيقة وسأل الله تعالى أن يفرق بينهم هو وأخيه والمؤمنين وبين القوم الفاسقين. وكانت الاستجابة الفوريّة من الذّات العليّة لدعاء موسى عليه السّلام بأنّ الأرض المقدّسة محرّمةٌ على القوم وبأن الله سبحانه وتعالى قد كتب على القوم التّيهان في الأرض فعلى موسى عليه السّلام ألاّ يحزن على القوم الفاسقين. وإنّ تحديد فترة التّيهان بأربعين سنة من معجزات القرآن الكريم الذي نبّه إلى أنّ الأربعين سنةً كفيلةٌ بإذن الله تعالى بذهاب الجيل الذي ألف الذلّ والعبودية ومجيء الجيل الجديد الذي عشق الحرية وضحّى من أجلها. لقد حدث هذا بشأن بني إسرائيل الذين دخلوا الأرض المقدّسة بقيادة يوشع بن نون عليه السّلام بعد أربعين سنة، وحدث هذا بشأن أطفال الحجارة في فلسطين المحتلّة والقدس الشّريف، الذين أعادوا بفضل الله تعالى الأمل في عودة فلسطين والقدس وسائر المقدّسات الإسلامية بعد أربعين سنة بالتّمام والكمال من الاحتلال البغيض. بقي علينا أن نشير إلى أنّ لفظة سنة يستعملها القرآن الكريم الذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين وفق استعمال العرب لها دليلاً على سني الشدّة والشّقاء.

● ● ●

الآية رقم (٢٠)

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

لبني إسرائيل تاريخٌ عريقٌ في التَّعنُّت والعناد منذ عهد رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السَّلام، فلا غرابة من اتّخاذهم الموقف ذاته من خاتم النَّبيّين وأشرف المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، وهم الذين ورثوا هذه الأخلاق السيّئة عن آبائهم وأجدادهم. إنَّ الآية الكريمة بقصد تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصَّلاة والسَّلام وقد بالغ بنو إسرائيل في إيذائه عليه الصَّلاة والسَّلام تقول له: واذكر أيها الرسول الكريم والنَّبيّ العظيم إذ قال موسى عليه السَّلام كبير أنبياء بني إسرائيل لقومه بني إسرائيل: ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾.

وأوّل ما يلفت النّظر في هذا القول هو أنّه لا يستغني عن القول: «يا قوم» مع صحّة الكلام بدونه، بل إنّه لا يستغني عن هذا القول ذاته في مطلع الآية الكريمة التّالية. ومع أنَّ القول الذي جرى على لسان موسى عليه السَّلام خطاباً لقومه يسيل رقّةً وعذوبةً ويدلّ على الخلق العظيم الذي فطر الله تعالى عليه موسى عليه السَّلام وسائر النَّبيّين عليهم جميعاً

صلوات الله تعالى وسلامه، فإنَّ النِّداء مرَّتين اثنتين بالقول: «يا قوم» ــ وهو نداءٌ يشير إلى ما سبقه ولحق به من نداءٍ لطيف وقولٍ رقيق ــ يدلّ على رهافة إحساس هذا الرَّسول الكريم وفرط رقّته وحَدْبه على قومه للدَّرجة التي يصدّر معها كل نصيحةٍ إلى قومه وإرشادٍ لهم بندائهم: «يا قوم» ولا يخفى ما لهذا النِّداء من دلالةٍ على أنَّ موسى عليه السَّلام يعتبر نفسه واحداً من القوم وجزءاً لا يتجزَّأ منهم ومن غير المعقول ألاَّ يحرص إنسانٌ على مصلحة ذاته فكيف إذا كان هذا الإنسان أحد رسل الله تعالى بل أحد أولي العزم من الرسل.

إنَّ نداء موسى عليه السَّلام قومه يتكرّر، وإنَّ شفقة موسى عليه السَّلام على قومه تتجدّد وتتأكّد بعدد مرّات النداء. وتبدو هذه الصفات الحميدة وخلق موسى عليه الصَّلاة والسَّلام العظيم أشدّ وضوحاً حينما نتبيَّن أخلاق بني إسرائيل السيِّئة وسلوكهم الشَّرس معه عليه الصَّلاة والسَّلام.

إن موسى عليه السَّلام يأمر قومه بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم. والذكر غير النسيان، ويكون الذكر باللسان والجنان، وبالجوارح والأركان. ويجمع هذه المعاني الشّكر لله تعالى على هذه النعم التي لا تُعَدّ والآلاء التي لا تُحْصى. إنَّ الإحسان من المعبود إلى العبد، ينبغي أن يقابله الإحسان من العبد في هيئة ذكر النّعمة وعدم نسيانها، وفي هيئة الشّكر لله تعالى عليها وعدم كفرانها. وكما يكون الشّكر باللّسان، وذلك بالتّحدّث بنعمة الله تعالى وعدم نسيانها، يكون بالقلب المفعم بالرِّضا والامتنان، ويكون بالجوارح والأركان التي تحوّل امتنان القلب وثناء اللّسان عملاً صالحاً يراد به وجه الله تعالى العظيم الإحسان.

إنّ هذه المعاني السامية هي بعض ما أراده موسى عليه السَّلام من قومه حينما أمرهم بأن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم.

ويبيِّن موسى عليه السَّلام لقومه بعض هذه النّعم ويعفو عن كثير. ويذكر عليه الصَّلاة والسَّلام ثلاثاً من النعم الدّينية والدّنيوية. إنَّ النّعمة الدينية في القول: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾، وإنَّ النِّعمة الدنيوية في القول: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ وإنَّ النعمة الدينية والدنيوية معاً في القول: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾. وإنَّ كلاًّ من هذه النِّعم الثلاث بحاجةٍ إلى أن نقف عنده.

وبشأن النعمة الدّينية في القول: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾، يلاحظ أنَّ حرف الجر الذي يستعمل هنا هو «في» وليس «مِنْ» إنَّ كلاًّ من حرفي الجرّ يؤدّيان الغرض المقصود ولكنَّ حرف الجرّ «في» يتجاوز مجرّد الوجود الذي يفيده كلٌّ من الحرفين إلى ما ينفرد به حرف الجرّ «في» من معنىً إضافيّ، وهو إفادة الاستمرار وعدم الانقطاع. والمعروف أنَّ النبوة موصولةٌ في بني إسرائيل من عهد إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام إلى عيسى عليه السَّلام آخر أنبياء بني إسرائيل، مروراً بموسى عليه السلام كبير أنبياء بني إسرائيل. والمعروف أنَّ درجة النبوة محض فضلٍ من الله تعالى على المصطَفَيْن من عباده جلّ وعلا. والمعروف كذلك أنَّ النّبوّة هي الطريق الوحيد المؤدّي إلى الرسالة كبرى نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده المصطفين الأخيار.

فإذا تحوَّلنا إلى النّعمة الأخرى الدّنيويّة التي أشار إليها القول: ﴿وجعلكم ملوكاً﴾، والمعنى: أنَّ الله سبحانه وتعالى جعلهم أصحاب خدمٍ وحشمٍ وثراءٍ وجاه، تبيّنّا الاختلاف بين القول هنا: «وجعلكم» وبين القول

من قبل: «جعل فيكم» إنَّ الاختلاف بين التَّعبيرين ينبّه إلى قلّة النَّبيّين رغم اتّصالهم بالقياس إلى ملوك بني إسرائيل ومن هم في حكم الملوك جاهاً ومالاً كما ينبّه الاختلاف بين التَّعبيرين إلى نفاسة الدين وهَوَان الدّنيا بدليل قلّة عدد النَّبيّين بالقياس إلى عدد الملوك. ومع أنَّ احتمال وجود أَكْثَرَ مِنْ نبيٍّ في وقتٍ واحد أمرٌ وارد فإنَّ وجود أكثر من ملك في وقتٍ واحد أمرٌ أكثر وروداً.

فإذا تحوَّلنا إلى النِّعمة الثالثة والأخيرة بشقّيها الدّيني والدّنيوي في القول: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾، والمعنى: أنَّ الله سبحانه وتعالى آتى بني إسرائيل من واسع فضله ما لم يؤت أحداً من عالمي زمانهم المعاصرين لهم تبيّنّا أنَّ هذه النِّعم ثوابٌ عاجلٌ لبني إسرائيل حينما كانوا يتمسّكون بتعاليم التوراة ويعملون الصالحات. والمعروف أنَّ القوم سُرْعان ما بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار. وممّا جاء في هذه المعاني قوله عزّ من قائل في سورة الجاثية[١]: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنّبوّة ورزقناهم من الطّيبات وفضلناهم على العالمين. وآتيناهم بيّناتٍ من الأمر فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم. إنَّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

ويواصل موسى عليه السَّلام نداءه وأمره قومه في الآية الكريمة التَّالية، فإلى:

---

(١) الآيتان ١٦، ١٧.

الآية رقم (٢١)

قال تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

يكرّر موسى عليه السَّلام نداء قومه: «يا قوم» دليلاً على فرط حدبه عليهم ﷺ وتوقيره لهم. وإنَّ الأمر بالدّخول في القول: «يا قوم ادخلوا» دليلٌ على أنَّهم على مشارف هذه الأرض المقدَّسة، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من مجرّد الدخول خاصَّةً وأنَّ الذي يأمر بالدخول رسولٌ كريمٌ من الله تعالى أوحى إليه جلّ وعلا بكتابٍ كريم هو التَّوراة. ثمَّ إنَّ هذا الرسول الكريم يبيِّن لبني إسرائيل أنَّ هذه الأرض المقدَّسة التي أمروا بدخولها قد كتبها الله تعالى لهم بأن تكون لهم داراً وسكناً. ومع أنَّ وعد الله تعالى حقّ، وأنَّ الذي ينقل هذا الوعد رسولٌ كريمٌ لا ينطق عن الهوى فقد كان لبني إسرائيل موقفٌ عجيب من الأمر بمجرّد الدخول في الأرض المقدّسة.

والمقدَّسة بمعنى المطهَّرة المباركة[١]، ويلاحظ أنه يجيء في الآية الكريمة ذكر الأرض وليس المدينة مثلاً: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم﴾، وبسبب مجيء لفظ الأرض في الآية الكريمة اختلف العلماء في معنى الأرض. فمنهم من ذهب إلى أنَّ المراد بالأرض المقدَّسة دمشق وفلسطين وبعض الأردنّ، ومنهم من ذهب إلى أنَّ المراد الطّور وما حوله، ومنهم من ذهب إلى أنَّ المراد الشَّأم، ومنهم من ذهب إلى أنَّ المراد أرض أريحاء، ومنهم من ذهب إلى أنَّ المراد مدينة

(١) تفسير الطبري (٦/ ١١٠)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٧).

أريحاء[1]، ومنهم من ذهب إلى أنَّ المراد بيت المقدس[2].

وهل في الإمكان أن نفهم من سياق الآيات الكريمات المراد من الأرض المقدسة، وهل المراد بذلك مطلق الأرض أو مدينةٌ بعينها؟ إن الآية الكريمة بعد التَّالية يجيء فيها ذكر الباب وذلك في القول: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنَّكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾، والمعروف أنَّ الباب إنَّما يكون للمدينة وليس لمطلق الأرض خاصَّةً في العصور القديمة التي كانت تحاط فيها المدن بأسوارٍ منيعة لها بابٌ معيّن أو أبوابٌ متعدّدة ومتفرّقة. لقد جاء ذلك الدَّليل في سورة يوسف عليه السَّلام في القول الذي جرى على لسان يعقوب عليه السَّلام في نصحه لأبنائه حينما يدخلون المدينة في مصر خوفاً عليهم من الحسد. قال تعالى[3]: ﴿وقال يا بَنِيَّ لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرِّقةٍ وما أُغني عنكم من الله من شيء. إن الحكم إلاَّ لله. عليه توكَّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون﴾.

وبهذا يتبيَّن أن المراد بالأرض المقدَّسة المدينة المقدَّسة. ويبقى للقول: «ادخلوا الأرض المقدَّسة»، فائدةٌ جليلة وهي أنَّ هذه المدينة المقدَّسة جزءٌ من الأرض المطهَّرة المباركة، وقد جاء في سورة الإسراء[4] قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنَّه هو السَّميع البصير﴾.

---

(1) انظر تفسير الطبري (٦/ ١١٠).
(2) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧).
(3) سورة يوسف: الآية ٦٧.
(4) الآية ١.